الفن والحياة والعولمة

يندرج كتاب "قبعة فيرمير: القرن السابع عشر وفجر العولمة" تأليف المؤرخ البريطاني المتخصص في تاريخ الصين تيموثي بروك , الصادر عن مشروع "كلمة" للترجمة التابع لهيئة أبوظبي للسياحة والثقافة ونقله للعربية د.شاكر عبد الحميد.

ضمن ما يمكن أن يسمى - بشكل عام - بالدراسات الثقافية، وبشكل خاص، بالنقد الثقافي، وفيه يأخذنا مؤلفه - تيموثي بروك - معه، زمانيًا إلى القرن السابع عشر، ومكانيًا إلى هولندا، أو ما كان يسمى بالأراضي الواطئة، فهناك في مدينة دلفت، ولد فيرمير؛ أشهر فناني الضوء، ربما في تاريخ الفن التشكيلي عامة، حيث قد لا يذكر تاريخ الفن بعده مثل هذا الشغف بالضوء، إلا مقترنًا باسم "فان جوخ" وشموسه المشعة في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

في دلفت، غرب هولندا، على بحر الشمال، حيث لد فيرمير، ورسم أهم لوحاته، ومنها لوحة "الضابط والفتاة الضاحكة"، حيث الضابط يرتدي قبعة خاصة كبيرة من الفرو – ومن هنا جاء عنوان الكتاب- وكان مقر الفرع الرئيسي لشركة الهند الشرقية الهولندية يوجد أيضًا في تلك المدينة، ومن هناك كانت تنطلق السفن نحو الشرق وتعود منه، تنطلق بالبحارة والسلع، وتعود ببعض البحارة فقط، وبسلع أخرى كثيرة متنوعة، هكذا بدأ التاريخ الحقيقي للعولمة - كما يقول تيموثي بروك - من هناك، من ذلك المكان، وذلك الزمن.

في هذا الكتاب ينتقل مؤلفه بنا من الفن إلى الحياة، ومن الحياة إلى الفن، من الفن الذي في الحياة: تجارة اللوحات والخزف والفراء والمنسوجات وغيرها، إلى الحياة التي في الفن: صناعة السفن، وتجارة التبغ، وعمليات التبادل الثقافي، والحروب والصراعات الكبرى التي دارت، هنا وهناك، والتي استهلت الحقبة الاستعمارية الكبرى في تاريخ البشرية، والتي رصدها الفن أو سَجَّلَ آثارها المتناثرة، هنا وهناك.

جاءت اللغة الإنجليزية لمؤلف الكتاب ممتعة في معظمها، إذ كانت زاخرة بالاستعارات والتشبيهات والإمثولات والأبيات الشعرية والإشارات الثقافية إلى الشرق تارة، وإلى الغرب تارة أخرى، وخلال ذلك كله كان هناك حضور كثيف للفن والتاريخ والجغرافيا وعالم البحارة والتجارة، وصناعة السفن، والممارسات الثقافية والتبادلات الإنسانية، والحضارة والاكتشافات العلمية. ولقد انعكس ذلك على النسخة المترجمة للكتاب، فجاءت اللغة العربية للكتاب كلاسيكية حينًا، ومعاصرة حينًا آخر، وبدت المفردات والتعبيرات وأسماء الأعلام الصينية والغربية، وغيرها، حاضرة بكثافة عبر هذا النص الممتع.

عاش الفنان الهولندي الشهير "فيرمير" (31 أكتوبر 1632 – 16 ديسمبر 1675) خلال القرن السابع عشر، وهو قرن كان يموج بكثير من التغيرات الضخمة، وقد جسد فيرمير كثيرًا من هذه التحولات والتغيرات في لوحاته، واستعان في هذا التجسيد بتقنيات الخداع البصري والغرف المظلمة Camera obscura، والتي كان رائد الإبداعات الخاصة بها العالم والفيلسوف المسلم الحسن بن الهيثم (1039-965) حيث تمتلك صور "الغرف المظلمة" "ذات الجودة" المعقولة "إحساسًا" بصريًا خاصًا. إنها تنتج أو تحدث إحساسًا مكثفًا بالنغمة واللون، وتقدم تكثيفًا مرهفًا دون خشونة أو بهرجة أو زخرفة مصطنعة. كما أن الفروق الطفيفة بين الضوء والظل فيها، والتي تبدو منتشرة جدًا، وغير مدركة لضآلتها، بحيث يصعب تسجيلها في المشهد الأصلي، تصبح هنا - بواسطة الغرف المظلمة - واضحة، كما تكتسب التأثيرات النغمية للألوان درجة جديدة من التماسك، وقد تجلى ذلك كله في أعمال فيرمير الذي قيل إنه استخدم هذه الغرف المظلمة للكشف عن بعض الخصائص البصرية المميزة التي تكون أقل وضوحًا، أو غير واضحة في الطبيعة والإبراز لها.

وهناك أيضًا تلك الأمور المتعلقة بالرموز والتفسيرات الخاصة بالعمل، والتي لا تكون موجودة بداخله حرفيًا، بل مجازيًا، ورمزيًا، وأمثوليًا، فلوحة فيرمير "امرأة تزن الفضة" (1657) يمكن تفسيرها على أنها تمثل امرأة تقوم بوزن سلع أو حلي أو ذهب أو فضة...إلخ، أي أشياء العالم المادي، بميزان حساس، وتقف أمام لوحة تمثل يوم الحساب، حيث ستوضع أعمال الإنسان وتوزن بميزان يفصل بين حسناته وسيئاته، والمقارنة بين هاتين العمليتين من الوزن أمر لا يمكن تجاهله في هذه اللوحة. وهي أمور عقلية أو معرفية غير مجسدة تكوينيًا. لكنَّ آخرين منا قد يهتمون أكثر بتلك العناصر التكوينية التي في اللوحة، مثل صورة يوم الحساب تلك.

يستعرض المؤلف عبر فصول هذا الكتاب بدايات العولمة من وجهة نظره كما تجسدت من خلال لوحات الفنان فيرمير ومن خلال الأشياء التي توجد في هذه اللوحات كالفضة والقبعات والكؤوس وأطباق البورسلين والخرائط وغيرها ومن خلالها يرصد –خارجها- التاريخ كما يتجسد في الرحلات البحرية والحروب التي دارت بين الأمم في الشرق والغرب، وغير ذلك من الموضوعات. هكذا يقول مؤلف هذا الكتاب: "إننا عندما نتجول بأعيننا فوق لوحات فيرمير، نبدو وكأننا ندخل عالمًا حيًا يزخر بالبشر الحقيقيين الذين تحيط بهم الأشياء التي تضفي معنى خاصًا بوجودهم في بيوتهم أو موطنهم الأليف وتحمل الشخصيات أو الأشكال الملغزة الغامضة في اللوحات أسراراً لن نستطيع معرفتها وذلك لأن ذلك هو عالمهم وليس عالمنا. لكن فيرمير رسم هذه الشخصيات بطريقة يبدو أنها تمنحنا الإحساس بأننا دخلنا إلى مكان حميم حيث كل شيء "يبدو" كأنه كذلك".

في حالة فيرمير، كانت الأماكن حقيقية، لكن ربما ليس بالطريقة نفسها تمامًا التي رسمها من خلالها، فلم يكن فيرمير قبل كل شيء، مصورًا فوتوغرافيًا بل كان فنانًا يدخلنا ويقربنا من عالمه، العالم الخاص بعائلة من الطبقة المتوسطة كانت تعيش في دلفت، عند منتصف القرن السابع عشر وحتى لو كانت دلفت لا تبدو في مجملها هكذا، كما صورها فيرمير، فإنه، وعلى الرغم من ذلك، فإن الصور (الفاكسية) المرسلة منه عبر لوحاته، صور مطابقة بدرجة كبيرة بالنسبة إلينا وكافية أيضًا كي ندخل ذلك العالم ونفكر كذلك فيما نجده فيه.

هكذا يطرح المؤلف تساؤلاته الخاصة به من خلال فحصه للوحات، أو بالأحرى، على نحو دقيق، الأشياء – أو الموضوعات- الموجودة في اللوحات. وهو يطلب منا تعليق بعض عاداتنا التي اكتسبناها عندما نقوم بالنظر إلى الصور، ومن أبرز هذه العادات ذلك الميل نحو اعتبار اللوحات نوافذ مفتوحة على نحو مباشر على زمان آخر ومكان آخر ، فمن الوهم المضلل كما يقول أن نعتقد أن لوحات فيرمير هي صور مأخوذة على نحو مباشر من الحياة في القرن السابع عشر في دلفت. فاللوحات لا "تؤخذ" (أو تلتقط) كما هو حال الصور الفوتوغرافية ، اللوحات "تصنع" على نحو متسم بالعناية والتروي، وليس الهدف منها أن تقدم واقعًا موضوعيًا بقدر ما يكون الهدف من ورائها أن تقدم عرض سيناريو خاصًا. وهذا الاتجاه هو الذي يؤثر على الطريقة التي ننظر من خلالها إلى الأشياء/ الموضوعات الموجودة في اللوحات، فعندها نعتقد أن اللوحات أشبه بنوافذ، ومن ثم يقول لنا "تيموثي بروك" إننا ينبغي أن نتعامل مع الموضوعات (الأشياء) الموجودة فيها على أنها تفاصيل ذات بعدين تكشف عن أنه إما أن الماضي كان مختلفًا عن ما نعرفه اليوم أو أنه هو نفسه كما نعرفه اليوم، أي وكما لو كانت هنا صورة فوتوغرافية قد التقطت له.

أسلوب تيموثي بروك، مؤلف هذا الكتاب - كما قلنا سابقًا - أسلوب ممتع، يجمع بين المتعة والفائدة، إنه مولع بالتفاصيل، لكن هذه التفاصيل سرعان ما تنتظم في صورة كلية عامة ونافعة، ويشكل السرد لدى هذا المؤلف عالمًا يتجلى على أنحاء شتى، حيث نجد في هذا العالم الحكاية، والمعلومات التاريخية، والسياسية، والاقتصادية، والأدبية، ونجد الاستعارة والمجاز والأمثولة والشعر، ونجد التفكه والتهكم والسخرية والتندر والتورية، ونجد مصائر البشر ونهايات الأشياء وبداياتها، ونجد أنفسنا نقرأ كتابًا ممتعًا يجمع بين الفن التشكيلي والأدب والاقتصاد والسياسة.

ولد تيموثي بروك عام 1951 في تورنتو، بكندا، عام 1951، وهو مؤرخ متميز له العديد من الكتب والبحوث العلمية المهمة التي يدور معظمها حول تاريخ الصين. تبوأ العديد من المناصب الأكاديمية والجامعية منها: أستاذ كرسي الدراسات الصينية بجامعة أكسفورد وأستاذ ومدير كلية القديس جون بجامعة كولومبيا البريطانية ومدير برنامج دراسات التبت المعاصرة في الجامعة نفسها – معهد الدراسات الآسيوية.

له عدد كبير من المؤلفات المهمة حول المجتمعات الآسيوية وحول التاريخ والاقتصاد والسياسة والتجارة الدولية الخاصة بهذه المجتمعات منها على سبيل المثال:

1. الصلاة من أجل السلطة: البوذية وتكوين مجتمع الطبقة العليا في الصين في أواخر عهد أسرة المنغ 1993.
2. فوضى المتعة: التجارة والثقافة في الصين في عهد أسرة المنغ 1998.

مترجم الكتاب د.شاكر عبد الحميد وزير الثقافة المصري وأستاذ علم نفس الإبداع بأكاديمية الفنون و شغل منصب نائب رئيس أكاديمية الفنون وعميد المعهد العالي للنقد الفني بأكاديمية الفنون و الأمين العام للمجلس الأعلى للثقافة. ويشغل في الوقت الحالي (ديسمبر 2011) منصب وزير الثقافة في جمهورية مصر العربية. وقد حصل مؤخراً على جائزة الشيخ زايد للكتاب فرع الفنون عن كتابه «الفن والغرابة».

ألّف أكثر من عشرين كتابًا أهمها: "الطفولة والإبداع" (في خمسة أجزاء) – "الأدب والجنون" - "الأسس النفسية للإبداع الأدبي للقصة القصيرة" – "العملية الإبداعية في فن التصوير" – "التفضيل الجمالي" – "الفكاهة والضحك" – "عصر الصورة" – "الخيال".

وترجم أكثر من ثمانية كتب أهمها: "بدايات علم النفس الحديث" – "الأسطورة و المعنى" – "الدراسة النفسية للأدب" – "المنهج الإثرائي المدرسي" – "معجم السيميوطيقا أو علم العلامات" – "العبقرية و الإبداع و القيادة" – "سيكولوجية فنون الاداء".

متخصص فى دراسات الإبداع الخاص بالأطفال والكبار وله دراسات عديدة في النقد الأدبي و التشكيلي.

وَحْي

ياسين محمد البكالي

رمضانُ يفتحُ دفتَرَهْ
وإليكَ يُشْرِعُ أسْطُرَهْ
فاكتبْ عليها ما ترى
كي لا ترى.. إن لم ترَهْ
الأرضُ تعبقُ بالهُدَى
وبه السماءُ مُعَطّرَةْ
ويدُ الإلهِ تحطُّ في
أيدي الجميعِ المَحْبَرَةْ
فاغسلْ يراعَكَ بالتُقى
إن كنتَ ترجوْ المغفرَةْ
وقلِ السلامَ على الذي
صلّى وصامَ وكَبّرَهْ
هوَ فرحةٌ لا تنتهي
حتى مجيئَ الآخِرَةْ
رمضانُ شهرُ محبّةٍ
وفضائلٍ متواتَرَةْ
تصفو بهِ الأرواحُ مِن
كلِّ الأمورِ المُنْكَرَةْ
وبهِ التي لقلوبِ كلِّ الـ
ناسِ ظلّتْ آسِرَةْ
يا ليتَني مِن سِرِّها
سأنالُ بعضَ المقدرَةْ
لأقولَ للحُجْبِ اكْشِفِي
لأغيبَ فيهِ وأحْضُرَهْ
أسْتَلُّهُ معنىً ..به
تغدُوْ حروفِي مُبْصِرَةْ
مولاي خُذْ بفمي فقد
مادَتْ بصمتي الثَرْثَرَةْ

الثقافة في عصر العوالم الثلاثة

عرض/ خليل المعلمي

صدر مؤخراً عن عالم المعرفة كتاب جديد بعنوان "الثقافة في عصر العوالم الثلاثة» من تأليف مايكل دينينغ وترجمة أسامة الغزولي.. ويسلط الكتاب الضوء على التحول الذي طرأ على الثقافة التي قفزت بمجرد اندلاع الحرب الباردة من الظلال العميقة التي حاول الماركسيون دفنها فيها منذ القرن التاسع عشر باعتبارها من البنى التحتية، إلى نقطة المركز في دائرة الصراعات السياسية والفكرية ومع زيادة الاهتمام بالثقافة عرف الناس عنها حقائق ربما لم يكن يعرفها إلا القليلون، ومنها أن الثقافة تخضع لقواعد الانتاج الكبير شأنها شأن الاستثمارات الكبيرة، ما يعني أن الجماهير لها ثقافتها بقدر ما أن الثقافة لها جماهيرها فالثقافة في كل مكان ولم تعد حكراً على قلة تميزت بالتأديب والتهذيب. ويعد هذا التحول من أهم ملامح "نصف القرن القصير" من 1945م إلى 1989م، عندما كان العالم منقسما إلى عوالم ثلاثة: رأسمالي أول، وشيوعي ثان، وعالم ثالث خارج من بين أنقاض النظام الكولونيالي.

ويسعى المؤلف مايكل دينينغ عبر محاولته إعادة صوغ موروثات الدراسات الأدبية البريطانية والتقاليد الراديكالية لحركة الدراسات الأمريكية في سياق عولمي إلى استكناه حقيقة ما دار في المعارك التي أشعلها الخلاف حول دلالات الثقافة ويعالج نشوء "أيديولوجية أمريكية" مائزة، ويتتبع مسارات الثقافات العولمية الطالعة من وراء أطلال عوالم ثلاثة تداعت لتخلي مكاناً لعالم واحد.

وفي مقدمة الكتاب يقول المترجم أسامة الغزولي أن وراء هذا الكتاب مسيرة طويلة أخذت مؤلفه المولود في العام 1954م من الانضواء تحت لواء اليسار الجديد وهو في الرابعة عشرة من عمره إلى العمل التطوعي في صفوف الحركة الديمقراطية الاجتماعية في إطار "اللجنة التنظيمية للاشتراكيين الديمقراطيين.. ولابد للقارئ وهو يطالع أعمال مايكل دينينغ أن يتذكر أجواء الكآبة والغموض والغدر والخيانة التي خيمت على العالم منذ ظهرت الفاشية في المانيا وايطاليا ضمن نتائج الأزمة الاقتصادية العالمية، المعروفة باسم الكساد الكبير في ثلاثينيات القرن الفائت والحرب العالمية التي فجرتها، ولم تنجل هذه الغمامة إلاّ بسقوط المنظومة السوفيتية بعد سقوط الفاشية بنصف قرن.

في هذه الكتاب يواصل المؤلف رصد الثقافة الأمريكية

من حيث تركها كتابه والذي ألفه في وقت سابق "الجبهة الثقافية: نضالات الثقافة الأمريكية في القرن العشرين"، لكن الموضوع يفرض عليه تجاوز النطاق الأمريكي ليطل على الثقافة العالمية وليشير ولو إشارات خاطفة إلى مبدعين عرب مثل الروائي نجيب محفوظ والمخرج السينمائي يوسف شاهين..

وفي أشارت أوردها "دينينغ" في نهاية الكتاب أن هذا العمل هو توليف يضم مجموعة من الأوراق البحثية التي وضعت لمناسبات أكاديمية مختلفة.

في الجزء الأول من الكتاب يعرض المؤلف لخروج الثقافة في مختلف بلدان العالم، من السرديات الوطنية إلى السرديات الكونية خصوصاً "سرديات العوالم الثلاثة" وهنا يظهر تركيز المؤلف على العالم الأكاديمي ليعالج ظهور الدراسات الثقافية، التي كانت مهمتها المعلنة هي معالجة النقص الناشئ عن إهمال الثقافة في كثير من التحليلات، خصوصيات نظريات التبعية.

وفي الجزء الثاني يعود دينينغ إلى العمل وعلاقته بالثقافة وخصوصاً بالدراسات الثقافية ويرسم الحدود لدور الدراسات الثقافية في ظهور الصناعات الثقافية، ويبين كيف أن الدراسات الثقافية ناهضت وجهتي النظر المهمشتين للثقافة: تلك التي سعت إلى تكريسها كتعبير عن ذائقة جمالية نخبوية، يتعين ألا تتلوث بتأثيرات من الكتب الجماهيرية وتلك التي يرصدها الأنثروبولوجيون كممارسات اجتماعية خارج دوائر التلوث الرأسمالي.

ويعرب دينينغ في هذا الجزء عن خيبة أمله في انجراف الدراسات الثقافية وراء فوكو، إلى منطقة تكون الثقافة فيها منظومة سيطرة كلية تساعد الدولة على السيطرة والرصد و"الضبط والعقاب».

وفي الجزء الثالث والأخير من الكتاب يعالج المؤلف الدراسات الأمريكية من منظور نقدي وعمالي وهو يقف هنا على أرض صلبة لأن الدراسات الأمريكية هي مجال تخصصه الأكاديمي فهو أستاذ الدراسات الأمريكية بجامعة ييل وهنا يعالج مايكل دينينغ التأثير البيوريتاني في الثقافة الأمريكية والرواية العاطفية وخرافة المناطق الحدودية والثقافة الاستهلاكية باعتبارها الموضوعات الرئيسية الأربعة، في الدراسات الأمريكية، وتصل بنا المعالجة إلى قضية الاستثنائية الأمريكية، فيمضي بنا المؤلف إلى قراءة نقدية (مدهشة في بعض نتائجها وممتعة في عمومها) لكتاب "الديمقراطية في أمريكا" الذي كتبه القانوني الفرنسي آليكسيس دي توكفيل والذي يمكن اعتباره "انجيل" الاستثنائية الأمريكية وليس غريبا بالتالي أن يقول لنا دينينغ ويوافقه كثر أن تأثير كتاب توكفيل تجاوز الدراسات الأمريكية إلى مجمل الثقافة في الولايات المتحدة.